وبنو شيبـانَ حولي عُصَبٌ منهمُ غُلْبٌ وليسوا بالقُمُشْ (١
وردوا المَجْد وكانوا اهلَـهُ فرَوُوا والمجدُ عافٍ لم يُنَشْ (٢
وترى الجُرْدَ لـدى أبياتهم كرِبابٍ بين صَلْصال وجَشْ (٣
فبها يَحْوون اموال العـدى ويصيدون عليها كلّ وَحْشْ
دَمِيَتْ أكفالُها من طعنهم بالرُّدَيْنيّات والخيـلِ النُّجُشْ
تُنهِل الخَطّيّ من اعدائنا ثمّ نفري الهامَ إن لم تَفْتَرِشْ (٤
ذاك قولي وثنـائي وهمُ اهلُ ودّي خالصاً في غير غِشّ
فسَلُوا شيبانَ ان فارقتُهم يوم يمشون الى قبري يَنَشْ
هل غَشِينا مُحْرماً من قومنا او جزَينا جازياً فُحْشاً بفُحْشْ

ما احسن هذا الختام وفيهِ دليل واضح على نصرانيّة شيبان العاملين بوصيّـة السيد المسيح وامرهِ بمحبّة الاعداء (لها بقيّة)

اخلاق ومشاهد

بحث انتقادي بقلم فواد افرام البستاني

تلميذ الخطابة واحد اعضاء المحفل الادبيّ في كليّتنا

اعزُّ مكانٍ في الدُّنى ظَهْرُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الانامِ كتابُ

امّا السوابح فلاسوابح ، وامّا الكتب فكثيرة بحمدالله وفضل كاتبيها العديدين

(١ وفي الديوان : حولي منهم خَلَفٌ . والقُمُش الرعاف (٢ ويروى : والمجدُ عافٍ . لم يُنَش اي لم يُنَل ولم ينقص (٣ وفي الديوان : وترى الخيل . . . كلّ جرداء وشاحيٌ هِمِش (٤ اي نسقي في الحرب رماحنا الحمأيّة من دماء اعدائنا ثمّ تقطع رؤوسهم ان لم تخضع لنا

الذين لا تكلّ لهم قريحة ، ولا يكبو بهم قلم ، : كتب عديدة بل اشباه كتب تغزونا حيناً بعد حين فتحتلّ ادبياتنا وذوقنا وتمرح في محيطنا الادبي غير الثابت بعد ، فتزيد حالتنا تقلقلاً ، وذوقنا اختلافاً

اشباه كتب كرجل الجراد ، من مجموعات عقيمة بالية لا فكر فيها ولا إبداع ، الى قصص عصرية مزخرفة ، منمّقة ، ليس فيها من العربي سوى الحروف ، الى تخيّلات سامية ، فوق طبيعية ، فلسفية ، أخلاقية ، وقولوا ما شئتم ، فانّ كثرة النعوت لا تقرّبها من مدار كنا لأننا بشرٌ مساكين ، وكاتبوها من انصاف الآلهة على زعمهم . وهي لو رآها المتنبّي لقال : « وشرُّ جليسٍ في الانام كتابُ »

هذا اكثر ما جنيناه من ثمرات المطابع في السنوات الاخيرة وهو كما ترون مرٌ أُجاج يروج في اول قطفه بين ايدي الشبان المدّعين حتى اذا عُرفت قيمته الحقيقية اصبح خير معين للصيادلة والبقّالين

أتريد ايها القارئ ان تعرف الكتاب من شبهه ؟

افتح الوجه الاول واقرأه بامعان . فاذا تجاوزتَهُ ولم يعلق بذهنك شيء سوى الالفاظ الرنّانة ، والتعابير الضخمة المجوّفة ، غالِطْ ذهنك وقل : ربما لم ادرك المعنى . ثم اقرأ وجهاً ثانياً وثالثاً ورابعاً حتى يُفتَح عليك بشيء . فاذا فهمت قل : الحمد لله . وتابع العمل واذا بقيت حيران تهتزّ لرنّة بعض الجمل او القوافي وتطرب — كما يفعل اكثر الناس — لِما لا تفهم ، قل : هذا شبه كتاب يُرصَف فوق امثاله ، امّا اذا ضجرت عند اول صفحة . فاتركهُ لأن الكتاب جليس مؤنس ولا يجالس المرء مَن يضجره . . .

*

أُهدي الى محفلنا الادبي كتاب « اخلاق ومشاهد » . فقلّبته لاول مرة فرأيت « كتابٌ ادبي اخلاقي انتقادي تأليف يوسف غصوب تصوير عزّت بك خورشيد . مصدَّر بمقدمة من شاعر القطرين : خليل بك مطران » . فقلت : طبعٌ حسن ، تنسيق جيد ، تصاوير رمزية ولم ازدْ لاني قد اعتدت أشباه الكتب المنمّقة المزوّقة . ثم اخذت الكتاب ففتحت الصفحة الاولى وقرأتها فتعرّفت بشابّ طالما رأيتهُ في كل مكان ، وسمعتُ به ، وانا غير قادر اذ ذاك على تحديده . قرأتُ هذه الصفحة فعرفته حق المعرفة

وارتحت الى اخباره وتتبُّع حوادثه التي كنت اتلوها وفي ذاكرتي بعض الشكّ بانني نظرتُها قبل اليوم. وهكذا حتى مرَّ امامي بشخص هذا الرجل نحو المئة «تُماس» لا يختلفون عن تُماس المؤلف الّا بالاسم وبعض الهيئة الخارجية

ثم جالستُ الكتاب اسبوعين اروّح الفكر في درس اخلاقه وأُبهج النظر في مشاهده وكنت كلما انهيتُ فصلًا انتقلتُ الى تاليه بشوق حتى انتهى وبفكري بعض ملحوظات فقلتُ:

صاحب الكتاب ذو روح انتقادية عصرية يرى الخلل في الاخلاق والمجتمع فيرميه بسهم دقيق قلَّ ان يطيش. يمعن النظر طويلًا فيمَن وفيما يرى فلا تفوته العلامة الفارقة بل يقرنها في مخيّلته بما يكون قد جمعه قبلًا فيؤلف من شتاتٍ متفرقة مثالًا تتجسّم فيه باجلى مظهر كل العواطف المشتركة بينهُ وبين من على شاكلتهِ. وبهذه الواسطة — التي كانت نادرة في آدابنا منذ عهد — نرى بعض ابطال المؤلف تغدو وتروح بين ظهرانينا في كل آن وأين

هاك مثلًا «تُماس» و«الوطني المتطرّف» و«المتنفذ» و«الفيلسوف» و«المسيو لبنان» و«مكتبي افندي» و«طالب الوظيفة» الذي يقول لاقرانه قبل الامتحان:

«انا ما جئت لاقدّم الفحص. انما وجدتُ متّسعاً من الوقت فاحببت ان أُضيعَهُ هنا. ارى اصحابي اولًا واقتل وقتي ثانياً وهَبُوا اني نجحت فانا مستقيل لا محالة لان لديَّ اشغالًا تمنعني عن هذه المهنة»

فاي كلام اصدق من هذا؟ واي درس اوفى لتصوير زهو بعض المعجبين بنفوسهم المموّهين على الغير بما ليس عندهم؟..

غير ان في هذه الطريقة بعض الخطر. وهو ان الكاتب يجتهد عادةً في جعل بطلهِ المثَل الوحيد لعادة او رذيلة او نقيصة. فيغالي في تصويره، وينفي عنهُ كلَّ ما يؤول الى غير هذا الغرض. فيخرج بهذه الطريقة عن المعقول. امّا صاحب «الاخلاق والمشاهد» فانه نجا من هذا الخطر اذ نراه مع مراعاته تصوير النقيصة او العادة الفارقة في رجلٍ ما لا يحرمه عاداتٍ مختلفةً وفضائل ايضاً بشرط ان لا تتنافر مع تلك النقيصة. وهكذا نرى الثقيل مثلًا «حسن الوجه، طلق اللسان، رخيم الصوت، لهُ نظرٌ في المسائل، ورأي في الحوادث، وقد يُصيب الحقيقة... ولكنه ثقيل مع

فضله وغزارة علمه » وهذا معقول لان ثقلهُ لا ينفي ما يبقى من المحاسن في هـذا الشخص . ولو صوَّر لنا الاديب هذا الثقيل خالياً من كل صفة حسنة لقلنا : هذا مُحال لا يصدق لاننا لم نرَ مثيلاً لهذا الشخص في علاقاتنا الاعتيادية

*

وللمؤلف نفس رقيقة وشواعر حسَّاسة ترى المؤثر فتتأثَّر وتؤثِّر

وقد يحمل هذه النفسَ خيرُ الوطن فتغار على بلادها وبني جنسها وتجتهـد في اصلاح ما اعوجَّ من امورهم . وقد تهزُّها الجهالات الدينية او المحاسن الفنية فتفيض شعراً منثوراً تارةً مادحةً الصليب وطوراً متنقلةً على ما لذَّ وطاب من رنَّات الموسيقى . فتحلِّق في سماء الفن وتقول :

« لماذا ترتفعين الى السماء ايتها الارواح اللطيفة ؟

« انا هبطتُ من السماء ، والىَّ السماء اعود

« انا لغة الملائكة حول عرشهِ تعالى

« أسمعَنا الله اناشيدك ايتها الموسيقى في جنَّات الخلود وامام عرش النور

« انتِ على الارض شيءٌ من السماء

« ولكن اين انت من موسيقى القائلين :

قدوس قدوس قدوس »

وقد ترتفع احياناً من الخبر البسيط الى الامر فيهِ جرحة محزنة تدع مجالاً للتفكر من مثل قوله في فصل « المهاجر » :

« راقبَ النجوم وهي ترتجف في قبَّتها وسألها عمَّا يخبئ له الحظّ وراء تلك البحور الواسعة المظلمة . وقد تذكَّر اهلـه فبكى وسقطت تلك الـدموع الحرَّى في اليمّ المضطرب ، واختلطت بكثير من مثلها تسحُّ بها اعين اللبنانيين وهم يرقبون النجوم على ظهور البواخر »

ولا تختص هذه الرنَّة المحزنة بهذا الفصل فقط بل قد تَسِمُ فصولاً عديدة ممـا يُظهران حقيقة حياتنا المحزنة أثرت في الكاتب فخرجت انتقاداتهُ من قلبٍ مخلص وحبٍّ وَدود آلمته هذه الحالة فصحَّ فيه قول من قال : انهُ يُضحك ليُبكي

ه

وهو ولوع بالوصف حسنهُ وتامهُ، اذا اخذ الموصوف لم يتركه الّا وقد اتى على كل علاماته الفارقة

لنتأمل «تُماس» و«الثقيل» و«هند» و«المتنفذ» وغيرهم فنرى ان اوصافهم لا تنقص في شيء عن الهيئة الطبيعية. وهذا ما ساعد عزّت بك خورشيد على وضع بعض هذه الاشخاص امام الابصار

وربما اخذ الحالة النفسيّة او العادة المالكة فصوّرها تصويرًا بديعاً يقرأهـا المرء فيخيّل لهُ لمسها. ومن هذا القبيل صورة «مكتبي افندي» وقد زاول مهنته سنين حتى اصبح يشتغل دون وعي :

«اعتاد قلمه كتابة ما يكتب حتى انه لو تُرك وحده لجرى من غير ما خطإٍ ولا تردُّد»

«ألف «مكتبي افندي» كل حالـة من حالات حياته حتى انهُ ينهض صبـاحاً ويأتي مكتبه مهتدياً في طريقه لا يضلُّ فيها. ويكاد يضع رجله في المكان الـذي وضعها فيه اليوم السابق. كل ذلك من غير فكر ولا انتباه كانه في المنام

«ترى كل صباح على الطريق رجلًا يسير الهوينا مِظلّتهُ تحت ابطه، ورأسهُ ممتدّ فيه عينان تنظران، ولا تريان، لا يلتفت يمنةً ولا يسرة، وترى كل مساء رجلًا آتياً الى بيته مظلّتهُ تحت ابطه ورأسه ممتدّ، فيه عينان تنظران ولا تريان»

وكذلك قل عن هؤلاء الشيوخ العجّز الذين عرفنا اخلاقهم وحادثناهم مرارًا. أفلا يصحُّ فيهم قول المؤلف :

«فهذا يخبرك بسابق عزّه وثروته وانقلاب الدهر عليه، وتكاثُر المصائب ممّا اوصلهُ الى ذلك المأوى. وهناك ترى شاعرًا يسرد عليك قصائده وينحو على النـاس باللائمة لإغفالهم قدره»

ولهُ رغبة في الوصف العصري وتصوير الحالات الحاضرة وقد تحمله هذه الرغبة الى التعلق ببعض الامور الوقتية الزائلة

*

امـا انشاء الكتاب فهو عصري محمود يرمي الى الابتكار وتقطيع الجمل . وهي طريقة طالما نشدناهـا . وقد فهم المؤلف معنى الكتابة فعدل عن تعقيـدات القدماء ، وتكلُّفاتهم اللفظية ، وتنسيقاتهم البديعيَّة ، ولم يجمح بهِ الخيال الى ما وراء الطبيعية بل ظلَّ في المحيط المتوسّط ، وخير الامور أوساطها ، فجمع فصاحة التعبير الى وضوح المعنى ، والمتانة العربية الى الرشاقة العصرية

واني لَتُعجبني ابتدآآتهُ اذ يعرض موضوعه بكل تفنُّن ، ويصوّر اشخاصه باقلّ من سطرين من مثل :

«قفل حانوته ، وتأبط مِنطرته وهرول الى البيت مسرعـاً . جريدتُهُ في جيبه ورأسه ممتلئ سياسة »

وقد يصادف هذا التفنن في الختام ايضاً كـما في « الى المصايف » و «العبدة على الراوي» و «بين النعوت والالقاب »

ومن امور التفنن الابتكار في سرد التشابيه الجديدة وهي طريقة حسنة يتوفق فيها بعض الاحيان كقوله : «والجبل يرتدي معطفاً من الالوان»

غير انها تطرّح بهِ في احيان اخرى فيترصَّل الى تشابيه غريبة يتلوها المطالـع فيقف حائرًا كأنهُ امام امرٍ غير اعتيادي ثم يسأل نفسه عن قيمتهـا وهل هي من التشابيه الحسنة او السيئة . وهاك امثلة على ذلك اوردها وادع الحكم فيها للقارئ العزيز :

« فخلتُ انهُ احد النحَّاص لتأنُّقه في لباسه وتقدُّمه في العمر ورفعه سبَلتَيه كأنه من اقرباء غليوم»

«احذية لمّاعة كأنها المرايا»

هذا ولا يسعنا الّا السكوت عن بضع هفوات لغوية فهذا الامر لا يكاد يخلو منه كتاب عربي :

وعلى كلّ حال نشكر المؤلف لانهُ اقرأنا كتاباً ممتعاً وجدنا في كل مقاطيعهِ لذّة وإفادة . وهـا نحن نقتطف شذرات من فصليهِ «الصليب والمبخرة» مـع الصورتين المثلتين لهما . فقال في الصليب (ص ٥١—٥٤) :

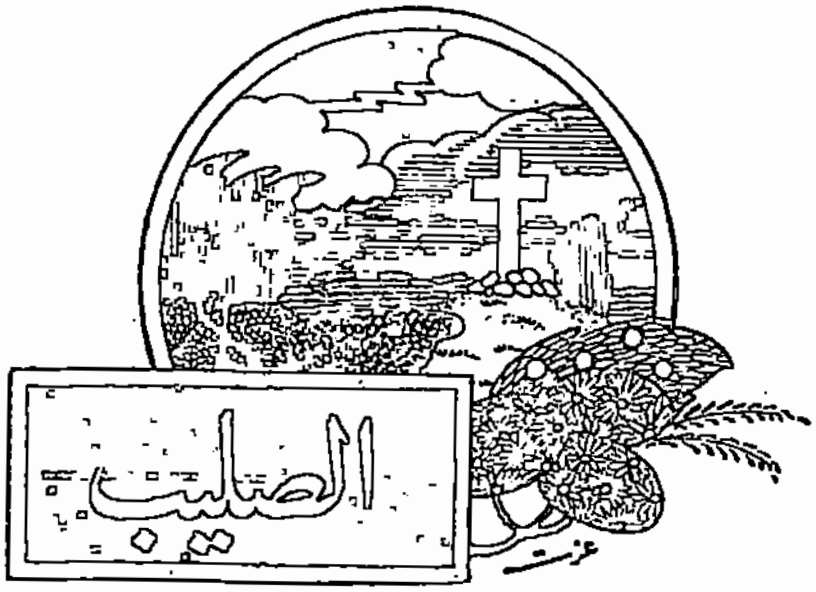

ايها الصليب

رفعوك شارةً للعار، وآلةً للذلّ والعذاب

نصبوك بين استهزاء الجموع، وغضب الشيوخ، وفظاظة الجنود، جعلوا الجلجلة كرسيّك لتشاهد المدينة ذلّك

يدُ الشعب اليك تُجمع بديه وينطق الحقد في ناظريه وصُراخهُ قد ملأ الفضاء: ارفعوهُ! ارفعوهُ! . . .

أمَم ولّت وامم ظهرت واصبحت الارضُ مدافن، والصليب خشبة الذلّ والعار منتصبٌ فوق تلك المدافن

أيها الصليبُ المقدّس قد ملكتَ العالم وبسطتَ ذراعيك فوق كلّ مكان

قد فتحت البلدان بالرحمة والمزاء لا بالجيوش والسلاح . . .

في أكواخ الفقراء وفي قصور الاغنياء، في اعناق العذارى وعلى تيجان الملوك، على مكاتب الفلاسفة وفي حقول الفلاّحين، على صدر الماء وفي مخادع الجهّال، في القرى الحقيرة وفي المدن العظيمة، في مجاهل الاقطار، وعلى غوارب الامواج في البحار لا تفتح العين الّا وتكتحل بانوارك الساطعة، ولا ترتجف القلوب الّا لترتشف من ينابيع رحمتك الواسعة . . .

انت شارة الحب، انت شارة التواضع، انت شارة العزاء.

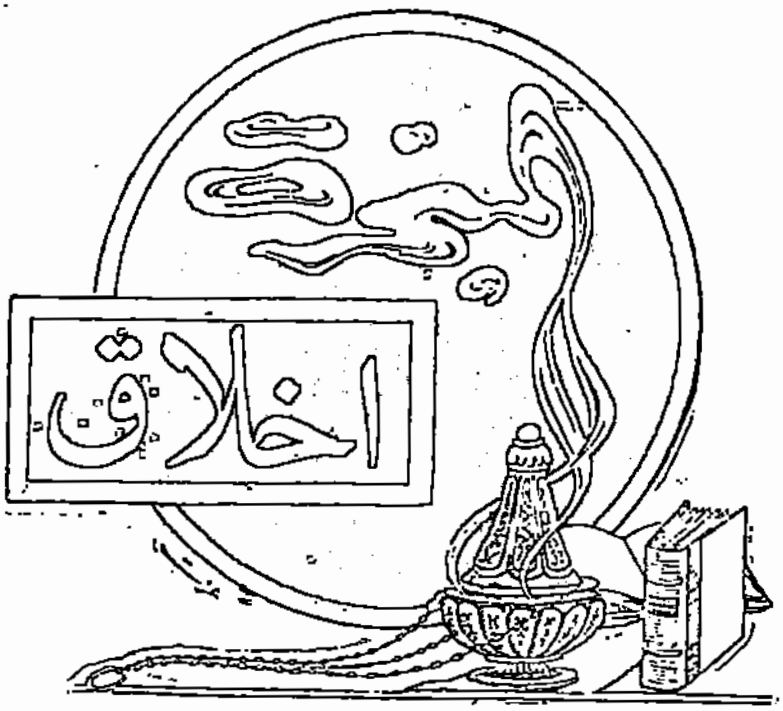

وقال في المبخرة بعد ان وصف تركيبها وبخورها (ص ١٦١—١٦٤) :

هذه المبخرة وان تكن خافية عن العيان لا تُنظَر ولا تُلمَس فهي منتشرة الاستعمال لاسيما في بلادنا السوريّة حيث الاطياب والرياحين تفري بتنشُّق الروائح العطريّة والابخرة الذكيّة ، وقد صاغ كثيرٌ من الكتّاب المباخر وتأنّطوها واوقدوا فيها حتى لا تفوتهم فرصة تسنح ولا تأخذهم غفلة عن تأدية واجب التبخير لكبير او صغير . . .

وهناك داءٌ هو المجاملة ، يقول الكاتب في نفسه : ما ضرّني تحسُّنت مقالة هذا ام ساءت لنزِدَ لهُ قسطاً من التبخير فيظلّ صاحبًا ولا نربح به عدوًّا ، ولاتركهُ يخبط في ظلامه

وعلى هذا يختلط الحابل بالنابل ويُصبح كلّ من مسك قلماً كاتباً وكلّ من نظم بيتاً شاعرًا . .

ومن الغريب انّ كل صاحب مهنة او حامل قلم اصبح لا ينتظر الّا المدح والتقريظ وان جاء من العجب العجاب من سقَطٍ في الكلام او نقصٍ في الصناعة ، وهو يحسب ان التبخير ضريبةٌ على الكتّاب لا بُدَّ من ادائها . . .

وبلغ الحمق ببعضهم الى ان اتّخذوا مباخر يبخّرون بها نفوسهم اذ لم يجدوا من يبخّرهم ، وهذه هي الطامّة الكبرى !